فيما يلي الحلقة الأولى من حلقتين، هما تعريبٌ(*) لمحاضرة ألقاها تشومسكي العامَ الماضي في أوستراليا بدعوة من «رابطة إسعاف تيمور الشرقية». والجدير بالذّكر أنّ اهتمام تشومسكي بقضيّة «تيمور الشرقية» يعود إلى ثلاثين سنة خَلَتْ، وذلك منذ انقلاب ١٩٦٥ الذي أتى بديكتاتور اسمه «سوهارتو» مايزال كابوسُهُ، بشخصه، جاثماً على صدر هذا البلد الكبير حتى اليوم!.

كلمةٌ لا بدّ منها حول مأساة تيمور الشرقيّة. فقد كانت هذه الجزيرة - الواقعة إلى شمالي أوستراليا - مستعمرةً برتغاليّةً، ثم أعلنت البرتغال تخلّيها عنها مع حلول نيسان ١٩٧٤. فتشكّلت في تيمور الشرقية ثلاثة أحزاب رئيسيّة، كان أكبرَها حزبٌ إصلاحي اسمه FRET-ILIN، أعلنَ استقلال الجزيرة في ٢٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٥. لكن في ٦ ديسمبر (كانون الأوّل) من هذا العام، زار الرّئيس الأمريكي فورد برفقة هنري كيسنجر تيمور الشرقية. وفي اليوم التالي اجتاحتها أندونيسيا وضمّتها إلى شريطِ جُزُرِها (المؤلف من أكثر من ٣٠٠٠ جزيرة) بعد أن قتلت أكثر من ٢٠٠ ألف مواطن. وحتى اليوم لم تعترف الأمم المتحدة بهذا الضمّ، بل طالبت الجمعية العمومية في قرار يحمل رقم ٣٨٤٥ بانسحاب أندونيسيا من الجزيرة. لكن أندونيسيا رفضت، وواصلت التنكُّر للحقوق القوميّة لشعب تيمور الشرقية.

والمعلوم أنّ المموّل الأساسي لنظام سوهارتو، سلاحاً وعتاداً، هو الولايات المتحدة... بل إنّ الولايات المتحدة كانت هي التي درَّبتْ جنرالات الانقلاب الدمويّ عام ١٩٦٥، وعادت عام ١٩٩٤ مثلاً فبعثتْ بأسلحة متطوّرة إلى سوهارتو تُقَدَّرُ بـ١٠٠ مليون دولار. ولطالَما تمّ إرسال هذه الأسلحة عبر... (نعم!) «إسرائيل»، منعاً لأيّ غضبٍ شعبيّ أمريكي (على نحو ما أكد تشومسكي في **Powers and Prospects**، ص ١٧٥).

وأمّا محاضرة تشومسكي التالية فلا بدَّ لي من أنْ أشير إلى أنّها تأتي بعد حوالي ثلاثين عاماً على إلقائه محاضرةً أخرى هي «مسؤوليّة المثقفين»، كنتُ قد عرَّبتُها منذ ثلاث سنوات ونشرتها في **الآداب** ضمن ملف كبير خاصّ بهذا المثقف المعارض الأبرز لسياسة الولايات المتحدة الداخلية والخارجيّة. وتشير عودة تشومسكي إلى هذا الموضوع إلى هاجس هذا المثقف بالتنظير لـ«مسؤولية» المثقف الغربي تحديداً، وهي مسؤولية يرَى تشومسكي أنها أعمقُ بكثير من مسؤولية «سائر النّاس» وذلك بسبب حريّة التعبير التي يحظى بها في بلاده.

لكنَّ مقالة اليوم تختلف عن مقالة الأمس من عدّة جوانب، أهمّها اثنان:

أ - تركّز مقالة اليوم على مسألة تيمور الشرقيّة، في حين تركّزتْ مقالةُ الأمس على ڤيتنام، وصارتْ دستورَ الحركة الطلابية المناهضة (عام ١٩٦٦) لسياسة التدخّل الأمريكي هناك.

ب - يطرح تشومسكي في مقالة اليوم، بخلاف مقالة الأمس، أسساً «نظريّة» جديدة لدور المثقّف المعاصر، تتخطّى بعض «المثاليّات» أو «العموميات» التي شابتْ مقالته

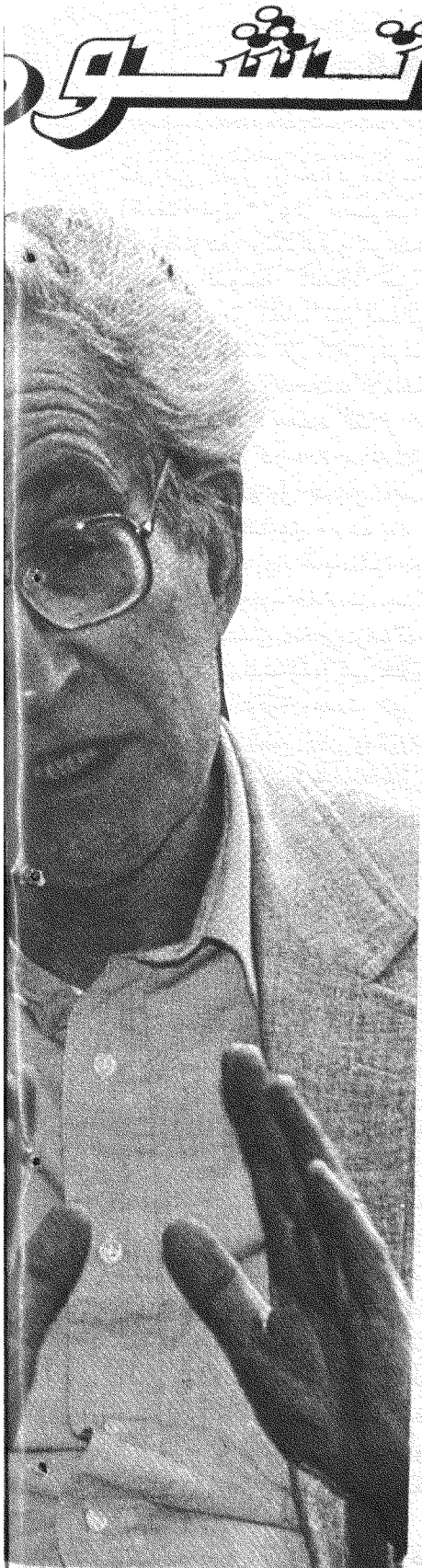

(*) أتوجّه بالشكر إلى كيرستن إدريس على ملاحظاتها القيّمة في هذا المجال (س).

الأولى. فهو يحدّد الآن **الجمهورَ** الذي ينبغي على المثقف أن يخاطبه، فينبذ فكرة «الكويكرز» الشهيرة: «قُل الحقّ في وجه القوّة / السلطة»، ويستبدلها – تبعاً لتجربته الطويلة المرَّة – بـ«قُل الحقَّ للجمهورِ الصحيح أو الملائم».

ولعلّ علينا، نحن الكتّاب العربَ، أن نستفيد من «وَصْفة» تشومسكي: فانخراطُنا في مؤسسات السلطة «الثقافية»، أوْ تقرُّبُنا من زُعماء التسلُّط، بحجّة «الترشيد» أو «التنبيه» أو «تجسير الهوّة بين المثقف والأمير» (بحسب المصطلح الشهير لسعد الدين إبراهيم)، سياستان خاطئتان أوْ خادعتان للذات. ذلك أنَّ «هنري كيسنجر» العربيّ أو مدراءَ «جنرال موتورز» العرب يعرفون «معظم الحقائق بما فيه الكفاية». وواجب المثقف العربيّ هو التوجّه إلى الجمهور الصَّحيح: **القادِر** على العمل من أجل التطوير أو الثورة، لا إلى «جمهورٍ» مساهمٍ في الارتداد أو القمع، وقد يَستخدم حججنا «الثقافية» ضدّنا ومن أجل قمع مشرعٍ لنا وللآخرين! وتقفز إلى بالي، للتوّ، قافلةُ المثقفين الذين التحقوا بركب رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري، وطموحُهُم – كل طموحهم – هو المال و«السلطان» المزيّف، لا ترشيد السلطة في سياستها تجاه المعلّمين والعمّال!

***

كما أنَّ نظريّة تشومسكي الجديدة تتخطّى اهتماماته التقنيّة السابقة نفسها. فمعلوم أنَّ هذا المفكّر هو أوّل من ثَوَّر حقل «العلوم الدِّماغية»، أي كيفية عمل الدماغ من أجل إنتاج اللّغة والذّكاء. لكنَّه في مقالة اليوم يميز بين الأمور ذات «الفائدة **النظريّة**»؛ ويعطي مثلاً على ذلك العلومَ الدماغيّة (التي هو من أشهر أسمائها في العالم!)... وبين الأمور **ذات الأهميّة البشرية** الإنسانيّة. ويحثّ المثقّفَ المعاصر على التوجّه بفكره وجهده إلى النّوع الثاني من الأُمور، لأنَّه بها وحدها يحقّق مسؤوليَّتَه الثقافية تحقيقاً صحيحاً ووافياً.

***

ولا بدّ أخيراً من إعادة التذكير بأُسلوب تشومسكي السَّاخر. وكنتُ قد أشرتُ في مقدِّمة ملف تشومسكي عام ١٩٩٣ إلى أنَّه حين يقول «نحن»، فإنَّه غالباً ما يعني «الإدارة الأمريكية» أو «مثقّفيها التابعين» أو «الغباء الإعلامي المتحيّز في الولايات المتحدة». ولذلك فقد ارتأيْتُ آنذاك، واليوم أيضاً: «أن أضع بعض عباراته بين مزدوجين، أوْ أن أُنهي بعضها الآخر بعلامات تعجُّبٍ غيرِ موجودة في الأصل، تدليلاً على أنّ المقصود هو السخرية لا واقع الحال».

لكنّني أُضيف هنا، أوْ أستدركُ مُوضحاً، أنّ «نحنُ» التشومسكيّة ليستْ سخريةً دائماً أوْ سخريةً فحسب. وإنّما هي أيضاً اعترافٌ بِدَيْنِ تشومسكي لحريّة التعبير التي يتيحها له مجتمعه الأمريكي، ولو في منشورات جماعاته المهمَّشة أوْ وسائل إعلامه المحارَبَة بشدّة من قبل نظام الشركات الأمريكية. كما أنَّ «نحنُ» التشومسكيّة تؤكّد أنَّ المثقف، مهما عارَضَ وحارَبَ أسسَ مجتمعه الفكرية والاقتصادية، جزءٌ من هذا المجتمع، وأنَّ آليات مقاومته إيّاها نابعةٌ من هذا المجتمع أيضاً.

س.س.إ.

الكتّاب والمسؤوليّة الثقافيّة(*)

تعريب: سماح إدريس

طُلِب مِنّي أن أعلّق على سؤالٍ أجدهُ - بصراحة - محيِّراً بعضَ الشيء كُلِّما طُرِح، وهو غالباً ما يُطرح. وعليّ أن أخبركم، سلفاً، بأنَّ لديَّ القليل لأقوله عنه مِمَّا يتجاوز البَدَهيَّات. والمبرّر الوحيد الذي أستطيع أن أُفكّر به لإرهاقي إيّاكم بها هو أنَّها كثيراً ما تُنفى؛ ولئن كان هذا النفي لا يأتي عَن طريق الكلمات فإنّه يأتي عن طريق الممارسة الثابتة.

تُطرَح الأسئلةُ بتنويعاتٍ كثيرة، فيحاول المرء أن يقول شيئاً عن بعضِها، وأمّا بعضها الآخر فإنَّه لا يملك إلاّ أن يحدّق فيها بارتباك. لعلّ هذه الأسئلة الأخيرة شديدةُ الصعوبة، مِن النّوع الذي يعرض بشكل ثابت في البحث العلمي، الذي يضغط - حين يكون في قمّة جديته - على تُخُوم الفهم المحدود دائماً. أو لعلّها أسئلة شديدة السُّهولة، يمكن الإجابة عنها في عبارةٍ واحدة. هذه هي الأسئلة المربكة، والسؤال الذي طُلب منّي أن أناقشه هُوَ واحدٌ مِنها... بالنسبة لي على الأقلّ.

فعلى مستوى أوَّل، تبدو الإجابةُ سَهْلَةً أكْثَرَ مِمَّا ينبغي: إنّ المسؤوليّة الثقافية للكاتب، أوْ لأيّ إنسانٍ شريف، هي أن يقول الحقيقة. وبالمناسبة، فأنا هنا أُؤوِّل عبارَة «المسؤولية الثقافية» تأويلاً ضيّقاً، إذْ ثمّة أبعادٌ كثيرة سأضعها جانباً، ومنها: الأبعاد الجمالية على سبيل المثال.

ولكنْ إنْ كان هناك جوابٌ سَهْل على هذا المستوى الأوّل من التعميم، فإنّ الاستدراكات والتعقيدات سُرْعَان ما تبرز. ومنها أنَّ الواجب الأخلاقي يحتّم أن يكتشف المرءُ الحقيقةَ وأن يُخبرها: **بأفضل وسيلة يتوفَّرُ عليها**، وأن تكون أموراً **ذاتَ شأنٍ**، وأنْ يوجِّهها إلى **الجمهور الصحيح**. وتصعب الأسئلةُ، وتبلغ أحياناً حدَّ الاستحالة على الإجابة، حين نحاول أن نحدِّدَ معنى هذه الاستدراكات.

فأمّا مسؤوليّةُ السعي إلى اكتشاف الحقيقة وإخبارِها، فإنّه ليس ثمّة الكثير مِمّا يمكن قوله عنها، باستثناء التأكيد على أنّها مسؤوليّةٌ صعبةٌ غالباً، وقد تكون مبهظةً على الصعيد الشخصي ولاسيّما لِمَنْ هُمْ أكْثَرُ عُرْضَةً لِلْجَرْحِ [أوِ الانتقادِ][1]. وهذا ينطبق على المجتمعات الحرَّة جداً، وأمّا في المجتمعات الأخرى فقد تكون التكاليفُ خطيرةً حقّاً.

ولننتقل إلى الجزء الثاني، لِنُعَيِّن الأمورَ «ذات الشّأن». وفي هذا المجال هناك عدّة عوامل يجب اعتبارُها. فثمّة أسئلة مهمّة لأنّها ذاتُ فائدةٍ نظريّة؛ ومِنها سؤالٌ تطرحه الكتبُ الأشَدُّ رواجاً في أيامنا هذه طرحاً منتظماً وهو: هل تملك العُلوم الدِّماغيَّةُ (brain sciences) ما تخبرنا به عن الوعي أو عن ظواهر أخرى مِن ظواهر العقل؟ لكنَّ هذه العوامل ليست هي ما يشغل اهتمامَنا هنا؛ بل ما يشغله هو البُعد الأخلاقيُّ المتَّصلُ بالنتائج المحتملة، ولاسيّما فيما يخصّ الحياةَ البشريَّة.

إنّ مسؤولية الكاتب بوصفه **عاملاً أخلاقياً** [أوْ أداةً أخلاقية] moral agent هو أن **يسعى إلى أن ينقل الحقيقةَ المتّصلة بأمورٍ ذاتِ أهميّةٍ بشريّةٍ إلى جمهورٍ قادرٍ على التصرُّفِ إزاءَها**. وهذا هو جزءٌ مِمَّا يَعْنِيهِ الْقَوْل بأنّ المرءَ عاملٌ أخلاقي، لا وحْشٌ!. والحقّ أنَّه

(*) «Writers and Intellectuel Responsibility» في كتاب تشومسكي الأخير **Powers and Prospects** الصادر عام ١٩٩٦ عن دار South End Press في بوسطن.

(١) **إزاء**: more vulnerable (هامش المترجم هـ.م.).

يصعب أن نفكّر باقتراحٍ أقلَّ مَدْعَاةً للنِّزاعِ من هذه البَدَهِيَّة... أو أنَّ هذا ما يمكن تَصوُّرُه. ولكنّ واقع الأمر لَيْسَ كذلك لسوء الحَظّ، والسببُ في ذلك بسيط: وهو أنّ الممارسة العادية التي تتَّبعها المجموعاتُ الثقافية التي ننتمي نحنُ إليها بشكل أوْ بآخر ترفض هذا المبدأ الأخلاقيّ الأوَّليّ، بل إنّها ترفضه بِحماسٍ وانفعال كبيريْن. ولعلَّنا رَسبنا في هذا المجال إلى أغْوار تاريخيّة أعمق، وذلك بحسب المقياس الطبيعي التالي: وهو مقارنةُ الممارسة العاديّة التي تتّبعها هذه المجموعات، بالفرص المتاحة أمامها.

ستكونُ لي عودةٌ إلى هذا الاحتمال البغيض، ولكنْ تمثيلاً على ما أقصده فَحَسبُ، تأمَّلوا المسألةَ التي جاءتْ بي إلى أوستراليا. والحقّ أنَّ هذه الزيارة قد أُعِدَّ لَها سنواتٍ كثيرة، لكنَّ المناسبة المباشرة لقيامي بها هي دعوة وُجِّهَتْ إليّ للحديث عن مسألة «تيمور الشرقيّة».

كنت في عام ١٩٧٨ قد أدليتُ بشهادتي في هذا الموضوع أمام الأُمم المتّحدة، ونُشرتْ في مجلة In-quiry اليمينيَّة الحُرَّوِيَّة[1]. وفي خِتام شهادتي، لاحظتُ ما كانَ صعباً إغفالُه، رغْمَ أنَّه يُغْفَلُ بِجَهْدٍ بَالِغٍ؛ ولهذا دَعُوني أقدّم ملاحظتي من جديد. فلقد شهد ذلك الزَّمنُ عمليْن شنيعَيْنِ رَئيسيْن، حدثا في قسم واحد منَ العالم، واكْتَسَبا حدَّةً وطابعاً متماثليْنِ إلى حدّ كبير: عَنيْتُ ما جَرى في كمبوديا وتيمور الشرقيّة. غير أنّ هذيْن العمليْن الشنيعين اختلفا من عِدّة جوانب أخرى، تسلّط أكثَر من ضوء خفيف على موضوعنا. فلنعدّد بعضَ هذه الجوانب، وكلٌّ منها يمكن إثباتُهُ بسهولة ولا يثير أيّ جدلٍ في أوساط مَنْ يمتلكون ذَرَّةً واحدةً من العقلانيَّة والشرف.

***

لنبدأ بفظائع الْخمير الحُمر [في كمبوديا]:

١ – فقد كانت جرائمَ بحقّ الإنسانيّة، إنْ كان لهذا المفهوم أيُّ معنى.

٢ – وكان يمكنُ نِسْبَتُها إلى عدوٍّ رسميّ.

٣ – وكانَتْ مفيدَةً على الصعيد الإيديولوجيّ، إذْ قدَّمتْ تبريراً لجرائمِ الولايات المتّحدة في الهند الصينية خمسةً وعشرين عاماً، ولجرائمها الأُخرى الجارية والقادمة. واستُخْدِمت هذه الجرائمُ استغلالاً متعمَّداً من أجل إعادةِ بناءِ الثِّقة [بالقدرة الأمريكية]، وسلاحاً لتنفيذ فظائع إضافيّة (ولسان حال عقيدة الإدارة الأمريكية: أنّ علينا أن نعذِّب وأن نقتل «لنمنع ظهور پول پوت[2] جديد»).

٤ – لم يتقدَّم أحدٌ بأيّ اقتراحٍ لتخفيف جَرائم الخمير الحمر، ناهيك عن وقفها كليّاً.

٥ – استثارتْ هذه الجرائمُ احتجاجاً وسخطاً عارميْن، ولافتيْن للنَّظر بحسب المعايير المُقَارَنَة، وبلغا درجةً قياسيَّةً منَ الخداع كان سيكونُ لَهَا أعظمُ الأثَرِ في ستالين نفسه (وهذا ليس بالمبالغة!). أمّا التلفيقات فكانت عصيّة على التصحيح؛ ولَم يؤدِّ كَشْفُ الجرائمِ إلاّ إلى ترديدٍ أكثَر حماساً لأقوالِ المخادِعينَ وإطراءً لهم، أيّاً تكنْ سَخَافةُ هذا الْخِدَاع وعَبَثِيَّتُه. بل إنَّ أشدَّ الاقتراحات اعتدالاً، القاضي بأنْ يحاول المرءُ أن يلتزم الحقيقة – وهو اقتراحٌ فظيعٌ في حدّ ذاته – قد أثارَ ما يشبه الهستيريا وخداعاً متجدِّداً.

مسؤولية الكاتب هي أن ينقل الحقيقة ذات الأهمية البشرية إلى جمهورٍ قادر على التصرف إزاءها

٦ – أضحتْ هذه الجرائمُ هي الرّمز الفعْليّ للشرّ، ووُضعتْ إلى جانب جرائم ستالين وهتلر، فبقيتْ ضمن اللائحة المقبولة لفظائع القرن العشرين[!].

ولننظرْ بعدَ ذلك إلى الفظائع في تيمور الشرقية، ولنقارنها بتلك التي ارتكبها الخميرُ الحمر في جميع الجوانب المذكورة، نقطةً بعد نقطة:

١ – كانت الفظائع في تيمور الشرقية جرائم بحقّ الإنسانيّة، ولكنَّها – علاوةً على ذلك – كانت جرائم نُفِّذَتْ في سياقِ عدوانٍ صريح؛ كانت جَرائمَ حربٍ، فهي لهذا تندرجُ بوضوح ضمن حكم القانون الدوليّ.

٢ – نُسِبَت مسؤوليَّةُ هذه الجرائم نسبةً مباشرةً إلى واشنطن [الإدارة الأمريكية] وحلفائها.

٣ – كانت، إيديولوجيّاً، تُعاني من اختلالٍ وَظِيفِيّ، بملحظ مَرْكَزِ المسؤوليّة[3].

---

(١) إزاء: libertarian، وهو المؤمن بحريّة الإرادة وإطلاقيّة الحريّة؛ وقد شاع استخدام «الحُرَّوية» في اللغة العربيّة مصطلحاً للحديث عن أفكار أحمد لطفي السيّد. (هـ.م.)

(٢) زعيم الخمير الحُمْر في كمبوديا، ورئيس الوزراء والمعروف أنّ عصابته قتلت ما لا يقلّ عن مليوني كمبودي (هـ.م.).

(٣) أيْ أنّ الولايات المتحدة لم تستطع أن تستغلّ هذه الجرائمَ إيديولوجيّاً بسبب مسؤوليّتها عنها (هـ.م.).

٤ – كان إنهاء هذه الفظائع على الدوام أمراً شديدَ السهولة، بملحظِ مركزِ المسؤوليّة [هنا أيضاً]. فتيمور الشرقية ليست البوسنَة، وَلا رَاوَنْدا، ولا الشِّيشَان. ولَم تكن ثمّة حاجةٌ لإرسال قوّات عسكريَّة، أو لقصف جاكارتا، أو لفرض عقوباتٍ، بَلْ ولا حتّى لإصدار تحذيرات. وإنّما كان يكفي أن تتوقّف الولاياتُ المُتّحدة عن ضخّ المال والسِّلاح إلى أندونيسيا.

٥ – لقد كان ردُّ الفعل على هذه الجرائم – وهنا سأحصر حديثي بأمريكا الشَّمَاليَّة، وإن تَكن الملاحَظاتُ التالية قابلة للتعميم على نطاقٍ واسع – صَمْتاً شَامِلاً تقريباً، بمَعْزِلٍ عن ترداد الإعلام أكاذيبَ الإدارة الأمريكيّة والجنرالات الأندونيسيين وَكأنَّها حقائق... وبدرجة من الخداع كان ستالين سيُعجَبُ بها هنا أيضاً.

وفّرت الولايات المتحدة الدعم العسكري والديبلوماسي الحاسم لارتكاب أبشع المجازر في تيمور الشرقية منذ الهولوكوست!

٦ – ليست الجرائمُ المدعومةُ مِنَ الغرب رمزاً للشرِّ، ولَيْسَتْ وَصْمَةَ عارٍ في سِجِلِّنَا [!]

إنّ هذا النسق [من الممارسة «الثقافية» المتّبعة] أمرٌ لافتٌ جداً. وإنَّ عدم ملاحظته، أو تجنُّب استخلاصِ نَتائج معيّنةٍ منه، يستدعيان موهبة كبيرة. بل إنَّه مِن قبيل الثناء على أنظمتنا التربويّة أنَّها مَنَحَتْ [مواطنيها] المواهبَ المطلوبةَ بمثل هذا النجاحِ المدهش [!]

***

يجدر هنا تفصيلُ النقطتين الأخيرتيْن بعضَ الشيء. فالواقع أنّ مقالتي [المنشورة في **Inquiry**] قد كانت الأولى في الولايات المتّحدة (أو في كندا، على حدّ علمي) مِنْ حَيث تَكَرُّسُها لِتيمور الشرقيّة؛ وكانت الثانيةَ التي عالجتْ هذا الموضوع على الإطلاق، وذلك بعد مضيّ ثلاث سنوات على الفظائع الهائلة التي لعلّها أسوأُ الفظائع نسبةً إلى عدد السُّكّان منذ «الهولوكوست»، وكان تمويلُها يأتي بشكل رئيسيّ مِن دافعي الضَّرائب الأمريكيين. وفي هذه الأثناء راحتْ واشنطن والمجموعةُ المثقفة تَنْعَمان بمديح الذّات، لأنَّ «حقوق الإنسان هي روحُ سياستنا الخارجيّة»؛ وهذه هي كلماتُ الرَّجل [المقصود: جيمي كارتر] الذي كان في حينها يسرِّع من تدفُّق الأسلحة إلى أندونيسيا... فيما الفظائعُ تبلغ ذُرْوَتَها، ويَنْفَدُ ما لدى المجرمين [الأندونسيينَ] مِن أسلحة بسبب وحشيّة اعتدائهم. كان كلّ شيءٍ يجري بصمت، وإنْ في الْعَلَنِ. وفي ذلك العام، أي عام ١٩٧٨، بلغتِ التغطيةُ الإعلاميّةُ الأمريكيّةُ والكنديّةُ لما يحدثُ في تيمور الشرقيّة درجةَ الصِّفْر، بعد أن كانت واسعةً قبل الغزو الأندونيسي.

فيما بعد، تمَّ التَّسليمُ بأنَّ ما حدث كانَ إشكالياً، بل ربَّما كان «إخزاءً[1] لأندونيسيا» (على نحو ما وصفته **النيويورك تايمز**). وبالمقابل، لم يكن ثمّة «إخزاءٌ» للولايات المتّحدة (أو لـ**النيويورك تايمز**)! كُلُّ ما في الأمر أنّنا في أسوإ الأحوال فشلنا في أن نولي اهتماماً كافياً الأعمالَ غيرَ المُرْضية التي قَام بها أناسٌ [المقصود: نظام سوهارتو في أندونيسيا] يفتقرون إلى مقاييسنا الحضارية، وربَّما لم نبذلْ جهداً كافياً في وقف الأعمال التي كُنّا نوفِّرُ لها، وبتلهُّف، الدَّعَم العسكريَّ والديبلوماسيَّ الحاسِم؛ وهذا أمرٌ يمكن فهمُه، لأنَّ عقولنا آنذاك كانتْ في مكانٍ آخر [المقصود: كمبوديا]. وَأمَّا الفظائع التي أغفلناها عن غير عَمْد، فقد كانت أخطاءً مؤسِفةً ارتكبها حاكمٌ سِجِلُّهُ «متقلِّب» في مراعاةِ حقوقِ الإنسان، على نحو ما أوضح مراسلُ **النيويورك تايمز** مِن آسيا. ومع ذلك، فإنّ حاكم أندونيسيا يبقى إنساناً «معتدلاً» (بحسب تقدير جريدة **كريستشنْ ساينْس مونيتور**)، «غير مؤذٍ في أساسِه»، عرضةً لنقدٍ غيرِ عادلٍ مِن قِبَلِ «مُرَوِّجي العصابات» في تيمور الشرقيّة الذين يتحدَّثون «عَنْ وحشيّة الجيْش [الأندونيسي] واستخدامِه لوسائل التعذيب» (حسب قَوْل **الإكونومِسْت**)!

وحين تمّ أخيراً الاعترافُ الضئيل بالجرائم (المستمرّة) في تيمور الشرقية – مع تبرئةٍ دائمةٍ لأنفسنا من كُلِّ مسؤوليّة عن دورنا المتعمّد والحاسم في هذه الجرائم – لم يكن هناك من يَدْفَعُهُ ابتذالُهُ لاستذكارِ شيءٍ من أحداث الماضي[2].

وبالتأكيد فإنَّ أكثر معالم هذا الماضي كشفاً هو إظهارُ الكتّاب [الأمريكيين، والغربيين عامة] ابتهاجَهُمْ المطلق بـ«المذبحة الجماعيّة الصَّاعقة» التي نفَّذها «المعتدلون الأندونيسيّون» عام ١٩٦٥، حسب قَوْلِ محرّري جريدة الـ

(١) إزاء: shaming، أي التخجيل، أو الدَّفع إلى الخزْي (هـ.م.)
(٢) واضحٌ هنا استمرارُ تشومسكي في السخرية (هـ.م.)

نيــويورك تايمز الَّذين التحقوا بزملائهم في التعبير عن غبطة غير مكبوتة بأخبار «حَمّام الدَّم الغالي» (حسب مجلة Time)؛ وهو حَمَّامٌ وصفه الناقد الليبرالي الأبرز في صحيفة الـ **نيــويورك تايمز** باستحسانٍ حين قالَ إنَّهُ «وَمْضَةُ نور في [ظلام] آسيا». وامتدح المعلقون المحترمون واشنطن لابتعادها عَن اتّخاذ موقفٍ علنيّ، وذلك بامتناعها عَن التباهي بإسهامها في «إنجازات المعتدلين» الأندونيسيين وامتناعها عن إظهار سعادتها بالنتيجة النهائية. لقد كان ذلك حكيماً، كما لاحظ محرّرو الـ **نيويورك تايمز**، لأنّ ترحيب واشنطن العلنيّ بحكّام أندونيسيا الجُدد «كان سيؤذيهم بالتأكيد»، وإنْ كانَ لا بأس على واشنطن أن تقدّم لهم «عَرابينَ سخيَّةً منَ الأرُزّ والقطنِ والآلات» وأن تواصل تقـديمَ مساعدتها التي حُجِبَتْ عن أندونيسيا قبل أن تصحّح الأمور «المذبحةُ الجماعيّةُ الصاعقة»!

إنّ هذه الحلقة، التي تخبرنا الكثيرَ عن معاييرنا الفعليّة، مدفونةٌ في عُمقِ ثقبِ الذاكرة. وقد سبَق لي أن عرضتُها في كتابٍ صدر لي منذ مدَّة وجيزة، وعنوانه **العام ٥٠١**[1]. إنَّ على النُّصوص أن تُقرأَ كي تُصَدَّق، غير أنَّه لَيْسَ هناك ما يشغل بالَنا، بل إنَّ قَدَرَ هذا الأمر هو أن يبقى في طيِّ الظلمة الملائمة[2].

وكما يُدرك كُلُّ إنسانٍ غيرِ أُمِّيٍّ، فإنَّ هناك مثالاً آخر حَدَثَ في المكان نفسه والسنواتِ عينها، ويمكن الاستشهادُ بِهِ للتأكيد على النقطة ذاتها التي أبرَزَتْها المقارنة بين كمبوديا وتيمور الشرقية؛ عنيْتُ تحديداً: نِصْفي «عقد الإبادة الجَمَاعيَّة»، على نحو ما وُصِفَتْ بِهِ السنواتُ الممتدَّةُ بين ١٩٦٩ و١٩٧٩ بلسان لجنة التحقيق الحكومية المستقلّة الوحيدة (من فنلندا). وهذا موضوعٌ آخَر حُذِفَ من التّاريخ (علماً أنّه لم يمرّ حقّاً من تلك المداخل «السامية») ويكشف لنا معلوماتٍ أكثر عن الحضارة الغربيّة.. إنْ قرّرنا أن ننظر إلى هذه المعلومات!

***

إنَّ ما قمتُ بِهِ لَهُوَ مجرَّد بداية متواضعة لكشف الأمور. فالحقيقة أسوأ بكثير، ويجدر بنا أن نعرف صفحةَ التاريخ التي تنتمي إليها. وعلاوة على ذلك فإنَّ الأمثلة ليست فريدةً، ولا هي نادرة. بل إنَّ الحكاية تتواصل، فيما نحنُ نلتقي بعضنا بعضاً: انتقِ أيَّ جزءٍ من العالم كيفما اتّفق، تجدْ على الأرجح أمثلةً فيه [شبيهةً بالتي ذكرناها]. خُذْ أمريكا اللاتينيّة مثلاً، وهي المجال التقليدي للنفوذ الأمريكي، والمكانُ الطبيعي – بالتالي – الَّذي ينبغي أن ننظر إليه إنْ رُمْنَا فَهْمَ القيمِ التي تسيطر على العالم المعاصر. إنَّ نصف المعونة العسكرية الأمريكية تذهب إلى كولومبيا، وقد زادَتْ تحت رعاية كلينتون. وكولومبيا هي أيْضاً أسوأُ منتهكٍ لحقوق الإنسان في ذلك النصف من الكرة الأرضيّة.

والفظائع المرعبة التي تقترفها طليعةُ الدُّوَل المستفيدة من المعونة العسكرية والتدريب العسكري الأمريكيّيْن مُوَثَّقةٌ على نحوٍ منتظم وبتفصيلٍ مروِّعٍ من طرف مراقبي حقوق الإنسان، والكنيسة، وغير ذلك. غير أنَّ الحقائق نادراً ما تنقلها وسائلُ الإعلام؛ وبمعزلٍ عن منظمات التضامن الصغيرة [مع الشعوب المضطهدة] ومنشورات الجماعات المهمَّشة فإنّ كلّ الفظائع تمرّ دون أي تعليق. وما يتسرَّبُ إنَّما هو «حكاياتُ جِنّ» رسميّة عن الحرب ضدّ المخدّرات؛ وهي حكايات تصرف النَّظَرَ عَنْها جَمَاعاتُ حقوق الإنسان وجميعُ المراقبين الجيِّدي الاطّلاع باعتبارها حكاياتٍ منافيةً للعقل... في حين أنَّها لا تني تُكَرَّرُ في «الصحافة الحرّة» بقدسيّة دينيّة وكأنَّها حقائق!

إن أكثر من نصف المعونة العسكرية الأمريكية تذهب إلى كولومبيا، التي هي أسوأ منتهك لحقوق الإنسان في تلك المنطقة من العالم!

لقد ثبتَ بِمَا لا يَدَعُ مجالاً للشّكّ أنَّ هذا نَسَقٌ عامّ، برهَنَتْ عَلَيْه آلافُ الصفحات من التوثيق المُفَصَّل، ومع ذلك فإنّها تُتَجاهَلُ في العادة. ولئن التُفتَ إليها فإنَّهُ يُستهانُ بها بعبارات طقسيَّةٍ ساخِرَة؛ فتوصَمُ هذه الصفحاتُ الموثَّقة بأنّها: «خطبة مُسَهْبَة عنيفَة»، أو «كلامٌ مُعَادٌ»، أو «نظريَّةُ مُؤامَرَة»[3]، أو «صفحاتٌ معاديةٌ للأمريكان» (والعبارة الأخيرة مصطلح مثير للانتباه، لأنَّهُ مستعارٌ من قاموس التوتاليتاريّة)، وغير ذلك من الأدوات التي يُوفِّرُها نمطُ التفكير السائد منْ أجل تَجَنُّبِ أخطار المنطق ومن أجل حماية المؤمن [بهذا النمط] من الحقيقة غير الملائمة.

وإنّه سيكون شيِّقاً إلى حدٍّ ما أن نقارن المدافعين المعاصرين عن النقاء العقيديّ، بالمفكّرين الْقَرْوَسْطِيّين الَّذين تعاملوا مع الهَرْطَقة بجدّية وشعروا بالحاجة إلى مواجهتها بالجدلِ

(١) العنوان الكامل للكتاب هو: **Noam Chomsky: The Year 501, The Conquest Continues.**

(٢) proper obscurity: يمكن تعريبها أيضاً بـ «الغموض أو الكتمان الأنيق أو المرتّب أو المحترم»؛ وهذه التعريبات جميعها أمثلةٌ على «الإرْداف الخُلْفيّ» (oxymoron) (هـ.م.).

(٣) نظرية تقول بأنّ التاريخ ليس إلاّ نتيجة لمؤامرات مدبَّرة. (هـ.م.)

الدَّقيق. ذلك المستوى من الشرف العلمي نادرٌ اليوم، على نحو ما سيظهر البحثُ الأمين. وهذه الحقيقة – وهي حقيقةٌ فعلاً – قد تكون جديرةً بالتأمّل.

***

إنّ البدهيّة، التي استهللنا بِهَا كلامَنا، تغدو بَعْدَ تطبيقها على الحالات القليلة المُسْتَعْرَضَة منذ لحظات، كالتالي: إنّ مسؤولية المثقفين الغربيّين قد كانت وماتزال هي قَوْلُ الحقيقة، عن «إخزاء الغرب»، إلى جمهور غربيّ، قادرٍ على إنهاء الجرائم، بفعاليّة وسهولة وسرعة. هذه هي البدهية: بسيطةٌ، غيرَ غامضة، صائبةٌ بدون أدنى شَكّ. فإذا شاؤوا [المثقفون الغربيّون] أن يدينوا فظائع الخمير الحُمْر، فهذا أمرٌ جيّد وحسن، ماداموا قد سعوا إلى التزام الحقيقة. لكنّ هذا سيكون أمراً ذا أهميّة محدودة إن لم يكن لديهم اقتراحُ عَمَلٍ؛ وهو ما لم يكن لدى أيٍّ منهم. فمن واجب المرء أيضاً أن يخبر بحقيقة جنكيزخان، غير أنّ هذه المهمّة ليست [في نظري] اليومَ من الأعمالِ الأخلاقيّة العظيمة[1].

لكنّ التصرّف الفعلي كان ومايزال نقيضاً [لهذه البدهيّة]... وهذا ما يخبرنا من جديدٍ شيئاً عن أنفسنا، إنْ نحن عقدنا العَزم على معرفتها.

ولنتأمّلْ عن كَثَبٍ الجزءَ الثالثَ من القاعدة الأخلاقية[2]، عنيْتُ: الجمهور. فالجمهور يُنْتَقَى [من قبل المثقف] انتقاءً صحيحاً حين تكون معرفةُ الحقيقةِ شأناً يخصُّهُمْ: بهدف تنويرهم، ولكن – أساساً – منْ أجل القيامِ بعَمَلٍ ذي دلالة إنسانيّة يُفيدُ في رَفْع المعاناة والأسى عَنْهم. ها نحن الآن نعودُ، منْ جديد، إلى أمر بديهي، وإنْ كانتْ هناك خلافات في هذا المجال حتى في صفوف النّاس الذين يتّفقُونَ على الأمور الأساسيّة اتفاقاً تاماً.

فلأضربْ على ذلك مثالاً شخصيّاً. فَأنا منخرطٌ منذ فترةٍ مديدةٍ من عُمْري انخراطاً وثيقاً بالمجموعات السَّلاميّة [اللاّعنفيّة] في العمل المواجه وفي المقاومة، وفي مشاريع تربويّة وتنظيميَّة. وقد أمضيْتُ مَعَ أفرادِ هذه المجموعات أياماً في السجن، ومِنْ عَجِيبِ الصُّدَفِ أنّ هذه الأيّام لم تمتدَّ إلى عدّة سنوات كما كنّا نتوقّع – وبواقعيّةٍ – قبل ثلاثين سنةً (وهذه حكايةٌ شيّقة، ولكنَّها مختلفة عن حكايتنا الحاليّة). وقد أدّى ذلك إلى خلق أواصر من الولاء والصَّداقة بيني وبينهم، ولكنَّهُ أبرزَ أيضاً بعضَ الخلافات. فقد تَبَنَّى أصدقائي وزملائي من جماعة «الكويكرز»[3]، ممَّن يشوِّشون على [أعمال] السلطة غير الشرعيّة، الشعارَ التالي: «Speak truth to power» (قُل الحقَّ في وَجْهِ القُوَّة / السلطة). ولكنّني أُخالفهم الرَّأيَ بِشِدّة. فاختيارهم للجمهور اختيارٌ خاطئٌ تماماً، والجهد [الذي يبذله أعضاءُ «الكويكرز»] يكادُ لا يعدو أن يكونَ شكلاً من أشكالِ الانغماس في إرضاء الذات.

أن تقول الحق في وجه كيسنجر وأحزابه مضيعةٌ للوقت!

إنّها ستكون مضيعةً للوقت، وجهداً بِلا فعالية، أن تقول الحقَّ في وجه «هنري كيسنجر» أو في وجه المُدراء التنفيذيين لشركة «الجنرال موتورز»، أو في وجه غيرِهم من ممارسي القوّة في المؤسسات القَسْرِيَّة؛ فالحقائق يعرف معظَمها هؤلاء بما فيه الكفاية.

ولكنْ يُسْتَحْسَنُ الاستدراكُ من جديد. فبقدر ما يفكُّ أشخاصٌ كهؤلاء ارتباطَهُم بوضعِهِم المؤسَّسِيّ ويغدون بَشَراً وأدواتٍ أخلاقيّة (moral agents)، فإنّهم سيلتحقون بسائر الناس. ولكنَّهمْ في أدوارهم المؤسسيّة، بوصفهم أناساً يمارسون القوّة، ليسوا أجْدَرَ كثيراً بالمخاطبة من أسوإ الطغاة والمجرمين... الذين هم، أنفُسُهُمْ، بشرٌ أيّاً تكنْ فظاعةُ أعمالهم!

إنّ قول الحقّ في وجه القوّة ليس مهنةً مشرِّفة جداً. بل على المرء أن يبحث عن جمهورٍ ذي تأثير. وعلاوةً على ذلك (وهنا استدراكٌ هامٌّ آخر)، يجب ألاَّ يُنْظَرَ إلى الجمهورِ وكأنَّهُ مُجَرَّدُ جمهورٍ [متفرِّجٍ أوْ متلقٍّ]، وإنَّما بوصفه جماعةً بشريّةً ذاتَ هَمٍّ مُشتَرك يأمَلُ المرءُ [المثقَّفُ] أن يُسْهِمَ بها بشكل بنّاء. إذْ ليس علينا أن نتحدَّث **إلى** هذا الجمهور، بَلْ **مَعَهُ**. تلك هي طبيعَةٌ ثانيةٌ لكُلِّ مُعَلِّمٍ جيّد، وعليها أن تكون كذلك لكلّ كاتب ومثقّف أيضاً.

ولعلّ هذا أن يكون كافياً ليوحي بأنّ مسألة اختيار الجمهور ليست تافهةً كليّاً.

(البقية في العدد القادم)

---

(١) يشير تشومسكي هنا إلى معيارِه الخاص لمستلزمات العمل الثقافي المعاصر، وليس هو من قبيل السخرية كما قد يخال البعض(هـ.م.).

(٢) المقصود بالقاعدة الأخلاقية: «بَدَهيّة» تشومسكي التي تحدّث عنها في المقطع الرابع من محاضرته (هـ.م.)

(٣) Quakers أعضاء فرقة مسيحيّة تشدّد على «النور الداخلي»، وتكره الطقوس، وتعادي الحرب(هـ.م.)